

المقابر والأضرحة العثمانية بمدينة شرشال

أ. تسكورت يمينه
المركز الجامعي تيبازة - الجزائر

الملخص

تعاقب على حكم الجزائر في الفترة الاسلامية كثير من الدول، وخلفت هذه الأخيرة بصمات تدل عليها وتعكس صورتها الحقيقية في مختلف المجالات، فقد شهدت الجزائر في الفترة الممتدة ما بين القرن الثامن والنصف الأول من القرن التاسع الهجري (8 - 9 هـ / 14 - 15 م) أوضاعا زعزعت هياكلها وأثقلت كاهل شعبها، ولكن بعد نهاية القرن التاسع وبداية القرن العاشر الهجري (9 - 10 هـ / 15 - 16 م) عرفت قدوم أعداد كبيرة من مسلمي الأندلس، فاستقروا بسواحلها وساهموا في تعميرها وتطويرها حيث تم بناء عدة مدن ساحلية كان لنازحي الأندلس الفضل الكبير في تشييدها وقيامها، لتليها المرحلة العثمانية وبها عرفت المدينة صحة جديدة ونهضة معمارية كبيرة، مراعين في كل ذلك شروط البناء التي حددتها المفكرون والمسلمون، والتي مفادها دفع المضار وجلب المنافع، ويظهر ذلك بعرضنا لمختلف الامكانيات الطبيعية والحضارية التي تتوفر عليها، وهذا ما ضمن استقرارها منذ الفترات القديمة، إلا أنها حافظت على بعض السمات التي اتصفت بها المقابر والأضرحة الاسلامية والتي لها مقاصد مختلفة، هذا ما ينفي الذهنية التي تؤمن أن مدن منطقة تيبازة خاصة شرشال لا تتعدى تلك العاصمة الموريطانية التي استغلها ملوكها في خدمة أسيادهم في روما .

الكلمات المفتاحية : مقبرة آل الغبريني بشرشال، أضرحة مدينة شرشال العثمانية،

ضريح سيدي ابراهيم الغبريني .

Abstract :

Many countries succeed on the rule of Algeria in the Islamic period, and left the latter its fingerprints show it and reflect its true image in various fields, Algeria has witnessed in the period between the eighth century and the first half of the nineteenth century (8- 9 AH / 14-15 AD) situations destabilized its structures and burdened its people , but after the end of the nineteenth century and the beginning of the tenth century (09-10 AH / 15-16 AD) knew the arrival of large numbers of Andalusia Muslims, settled coastline and contributed to the its reconstruction and development , where construction of several coastal cities took place by the Andalusians great merit who constructed and established it , to followed by the Ottoman period and with it the city's knew a awakening and huge architectural renaissance, taking in account all construction conditions set by intellectuals and Muslims, which aimed to push away harms and bring benefits this is shown through our presentation to the various natural and cultural potentials that are available in it, and that what guaranteed its stability since the ancient times, but it has maintained some of the features that characterized the tombs and Islamic shrines that have different purposes that have different purposes , this eliminates the mentality that believes that the cities of Tipaza region especially Cherchell not exceed the Mauritanian capital exploited by kings in the service of their masters in Rome.

Key words: El Ghobrini cemetery in Cherchell, the Ottoman tombs in the town of Cherchell, the tomb of Sidi Ibrahim El Ghobrini:

المقدمة

تمثلت الآثار الاسلامية المادية الثابتة الدينية عموما في المساجد التي هي نواة المدينة الاسلامية، ونحوها من زوايا وقباب أهل التصوف، وقد استمد البناء طريقتهم من حضارات القديمة التي شاعت أيام الاغالبه والحفصيين والزيايين، كما استمدوها من حضارة الاندلس التي تشترك في كثير من الخصائص مع حضارتهم، وقد هاجر الاندلسيون أنفسهم إلى الجزائر وجلبوا

معهم صناعة البناء فكان تأثيرهم عظيما ولا سيما في القلاع والقصور، أما الأثر العثماني فقد ظهر خصوصا في بعض المساجد والقلاع والثكنات، وكانت البيئة وراء طريقة العمارة في الجزائر، فالحرارة والبرودة من جهة وعدم ظهور المرأة هي التي أملت كثيرا من أساليب بناء المنازل والمساجد والزوايا، وكان الغزو البحري وتعرض السواحل الجزائرية للهجمات المتكررة قد أملى طريقة بناء القلاع والحصون والمنائر للمراقبة والدفاع، ومن جهة أخرى أدت وفرة الجنود العزاب التي كثرت بناء الثكنات¹

فن أهم شروط قيام المدن وضمان بقائها وبقاء مرافقها تحصينها، وقد شهد ذلك اختلافا كثيرا وفقا لمعايير كثيرة لذلك كطبيعة موقع المدينة وموضعها، وليستوفي هذا الشرط حرص المعماري المسلم على جعلها في أمكنة محصنة طبيعيا بجعلها على هضبة وعرة من جبل أو باستدارة بحر أو نهر، ليصعب الوصول إليها على العدو²، كما يمكن تحصينها عن طريق الامكانيات المعمارية المتاحة من خنادق وأسوار وما يتخللها من أبراج ومدخل، ومجمل هذه المعايير مفادها حفظ المقاصد الأساسية للإسلام، النفس والعرض والمال³، ومدينتي القليعة وشرشال من بين المدن التي توفرت بها تلك المواصفات، لكن المتبقية من مبانيها، ما أتاح لنا دراسة المعالم ميدانيا بأخذ الصور والقياسات أحسن من دراستها على أساس الفرضيات باندثارها، لذلك اخترنا في دراستنا جزء من المعالم الدينية لمدينة شرشال العثمانية

1. المقابر :

يخصص بكل مدينة مكان لدفن أفرادها بعد أن تفهم المنية، كما هو الحال بالفترة العثمانية بمنطقة تيبازة، وأثناء دراستنا البسيطة هاته، تم لنا التعرف على مقابر خاصة مجاورة للأضرحة، والتي لأصحابها دور كبير في ترقية الجانب الديني الصوفي والعلمي وكذا الاجتماعي، لندرج كل من مقبرة عائلة الغبريني نسبة لوليها الصالح سيدي ابراهيم الغبريني بمدينة شرشال، ومقبرة المبارك نسبة لوليها الصالح سيدي علي مبارك بمدينة القليعة، لكن هاته الأخيرة صغيرة

الحجم وقليلة القبور بصحن المدفن، لا تحف بها عمائر إلا الصور المحيط بالضريح والمجاور لمسجد سيدي علي مبارك، لذلك تطرقنا أكثر إلى دراسة مقبرة آل الغبريني معماريا بمدينة شرشال .

1 - مقبرة عائلة آل الغبريني بمدينة شرشال :

تنسب هذه المقبرة إلى عائلة الولي الصالح " إبراهيم الغبريني " وهي عائلة سكنت من قبل الساقية الحمراء جنوب المغرب الأقصى، وجاءت إلى شرشال أواخر القرن التاسع الهجري الخامس عشر ميلادي⁴ .

أ - موقعها :

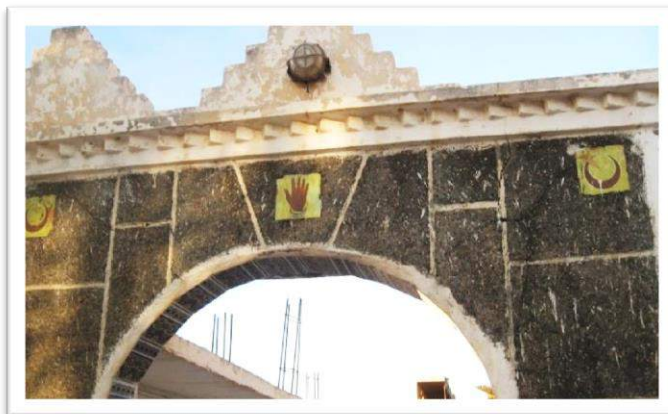
تقع المقبرة على بعد 300 م قبل باب الجزائر بمدينة شرشال⁵، وتتمتع بموقع جميل يشرف من جهته الشمالية على البحر، ما زادها في عدد الوافدين والزوار إليها خاصة أيام الربيع والصيف، ويقابلها المتحف القديم أو الفسيفساء من الجهة الجنوبية، ويحدها من الجهة الشرقية المسبح العسكري، كما وتتصل بها مجموعة من الوحدات السكنية بجهتها الغربية .

تعتبر المقبرة من بين المعالم الأثرية المصنفة وطنيا بتاريخ 30 / 05 / 1982 م، وقد قدرت مساحتها الإجمالية ب 1392 م⁶، وهي تضم مجموعة من الأضرحة وقبور أبناء عائلة الغبريني فقط، ومازال يدفن فيها إلى يومنا .

ب - دراسة وصفية تحليلية :

رغم بساطة مقبرة الغبريني بشرشال لكنها تمتاز بجمال خاص، ذلك بسبب الانسجام بين وحداتها المختلفة التي خلقت مشاعر متنوعة من الطمأنينة والسكينة والتوازن والحكمة، يشعر بها أي زائر لها منذ الوهلة الأولى⁷ .

والسبيل إليها عبر مدخل رئيسي بالجهة الغربية الشمالية، ويعلوه عقد نصف دائري تتوجه ثلاث شرفات مسننة، وتزخرفه أهلة وشكل يد محورة تعرف بالعامية "الخامسة"، يعتقد أنها تعود لفاطمة بنت الولي الصالح "إبراهيم الغبريني"⁸ (أنظر الصورة رقم 01)



الصورة رقم 01 : قوس وأهلة وخامسة

بمدخل مقبرة الغبريني بمدينة شرشال

بعد المدخل نجد فناء على يمين الرواق الشمالي المطل على البحر، ويبلغ طولها 12.20 م وعرضها 3 م، وهو مدعم من جهته الشمالية بخمسة دعائم ضخمة تعلوها ست عقود نصف دائرية، ودعم من الجهة الجنوبية بخمس أعمدة مركبة نصفها السفلي مثنى، ونصفها العلوي حلزوني، ترتكز على قواعد مربعة صغيرة الحجم، تيجانها كورنثة التي تزينها أوراق الأكانتس زائد أهلة بجهاثها الأربع، تعلو تلك الأعمدة عقود متجاوزة منكسرة، بين كل عقد وآخر حزام أفقي وعمودي من البلاطات الخزفية، وسقف الرواق بأقبية نصف برميلية محمولة على عوارض حديدية، ويتقدمه من جهته الشمالية شرفة محاطة بدرابزين، وكانت هناك أسفله عين عذبة مياهها (أنظر الصورة رقم 02)



الصورة رقم 02: الرواق الشمالي المطل على البحر لمقبرة الغبريني بشرشال قبلا عن أرشيف حصن 23 أغلق جزء من ذاك الرواق مؤخرًا، ولم تبق منه سوى ممران معقودان (أنظر الصورة رقم 03)، وبجانبهما أربع غرف متماثلة بطول 3.60 م وعرض 3.25 م اختزلت من مجال الأروقة القديمة المذكورة سالفًا، خصصت للزوار المقيمين خاصة أيام الصيف (أنظر الصورة رقم 04)، كما ويتصل به من الجهة الشرقية مسكن أحد أفراد عائلة الغبريني



الصورة رقم 03 : تجديدات الأروقة المطلة على البحر بصحن مقبرة الغبريني بمدينة شرشال



الصورة رقم 04 : الرواق الشمالي لمقبر الغبريني بشرشال اليوم .

ونجد بالجهة الجنوبية لصحن المقبرة رواق جنوبي مقابل للرواق الشمالي قدر طوله ب 9 م وعرضه 2 م، يتصل بين ضريحي " سيدي إبراهيم الغبريني " و " سيدي محمد شريف "، وهما يتقدمان رواق مفتوح مباشرة على الصحن .

دعمت واجهتها الأمامية بخمس أعمدة أسطوانية البدن، تقوم على قواعد مربعة، تعلوها تيجان جصية بسيطة، وتعلو تلك الأعمدة أربع عقود متجاوزة منكسرة، نجد بين كل عقد وآخر حزام مزدوج عمودي، وآخر أفقي من المربعات الخزفية متنوعة الزخارف (أنظر الصورة رقم 05)، وقد ازدان جدارها الداخلي أربع حنايا غائرة موزعة في الجدار بانتظام، متماثلة من حيث الشكل والمقاسات (أنظر الصورة رقم 06)، فارتفاعها قدر ب 1.15 م وعرضها 0.45م وعمقها 0.55م، الملاحظ أنه قد خصص لوضع الشموع من طرف الزوار للتبرك بالولين الصالحين .

وسقف الرواق عبارة عن أقبية نصف برميلية محمولة على عوارض حديدية، وقد توج أعلى الواجهة الأمامية للرواق إفريز مشكل من القرמיד النصف أسطواني .



الصورة رقم 05: منظر الرواق الجنوبي لمقبرة الغبريني بشرشال .

الصورة رقم 06 : صورة لإحدى حنيات جدار الرواق الجنوبي من الداخل بمقبرة الغبريني

ويتصل بالرواق من جهته الغربية غرفة السبيل إليها عبر مدخل يعلوه عقد متجاوز منكسر يغلق بباب من حديد، اتخذت الشكل المستطيل بطول قدره 3.40 م وعرض 2.10 م، جاء سقفها مشابها لسقف الرواق الجنوبي، وتم فتح حنية بجدارها الجنوبي مائلة للتي بالجدار الداخلي للرواق السابق، وأصل تلك الغرفة رواق كان متصلا وعلى نفس الاستقامة والاتجاه مع الرواق الجنوبي، كان مدخلا للزوار من خلاله إلى صحن المقبرة عبر مدخل في جهته الغربية معقود بعقد متجاوز منكسر بعد عبور مدخل ثان يعلوه عقد نصف دائري في الجهة الشرقية للرواق نفسه، المفضي مباشرة نحو الصحن، وبسد المدخلين أصبحا على شكل خزانيتين جداريتين لتلك الغرفة .

جاء صحن المقبرة مستطيلا طوله 15.30 م وعرضه 9.30 م، وقد احتوت على عدة قبور متناثرة أحيانا ومجموعة أحيانا أخرى، وتحتوي الساحة أيضا على نافورة حديثة قدر قطرها ب 1.60 م، إلى جانبها من الجهة الشمالية بئر عتيقة بنيت فوقها فيما مضى غرفة صغيرة بها مضخة لضخ مياه البئر إلى صهريج يلو نفس الغرفة، ويتصل بها من الجهة الغربية حوض به حنفيات لتسهيل استغلال الماء من طرف الزوار (أنظر الصور أ - ب رقم 07) .



ب



أ

الصورة رقم 07 : صحن مقبرة الغبريني بشرشال .

لكنها حذفت مؤخرًا ولم يبق منها سوى فتحة البئر مباشرة، وقناة لصرف المياه مكانها

ظاهر للعيان (أنظر الصورة رقم أ - ب 08) .



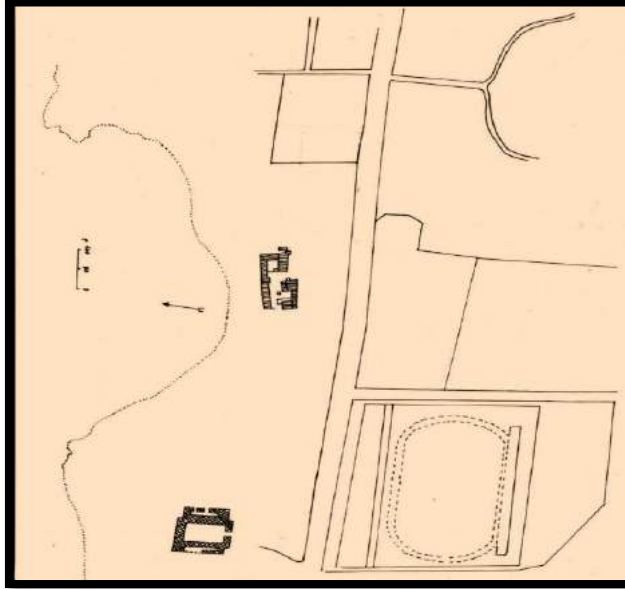
ب



أ

الصورة رقم 08 : البئر وحده بساحة مقبرة آل غبريني بشرشال .

وبجهة المقبرة الشرقية وبالضبط خلف ضريح الولي الصالح " سيدي محمد شريف " توجد مساحة واسعة عبارة عن مقبرة قديمة، وتظهر لنا بين تلك القبور بئر ثانية خاوية عمقها 10 م تقريبا (أنظر المخطط رقم 01) .



المخطط رقم 01 : موقع مقبرة آل غبريني بمدينة شرشال .

من انجاز الطالبة - عن أرشيف حصن 23 -

II. الأضرحة :

ضريح كلمة مشتقة من فعل " ضرح " بمعنى حفر القبر، جمعها " أضرحة " وهو الشق في وسط القبر والحد في الجانب، وقال الأزهري في ترجمة لحد : " والضريح والضريحة ما كان في وسطه يعني القبر، وقيل الضريح القبر كله وقال هي قبر بلا لحد " ⁹، وقد وردت عدة مصطلحات للضريح يختلف أشكالها ومواقع وجودها، إذ استعملت كلمة " تربة " للدلالة على المدفن في العصر العثماني ¹⁰، كما أطلق عليه كلمة " مشهد " على كل بناء تذكاري أعد لدفن الشهداء أو أهل البيت، وهو من العادة مكان للزيارة للعديد من الناس والأتباع، وفي البلاد

العربية أطلق اسم " مقام " على مكان دفن الأولياء والشيخ والأنبياء، وفي المغرب استعملت كلمة " مربوط " للدلالة على المدفن، والولي في ذات الوقت ¹¹، إضافة إلى أن المسلمين قد أقبلوا إلى استعمال القباب في الأضرحة حتى طلقت جزءا على الكل وصارت كلمة " قبة " اسم دال على الضريح كله ¹² .

كانت تلك الأضرحة تقام على رفات سلطان أو أمير أو رجل الح أو إنسان له مكانة تدعو إلى تخليد ذكراه، وقد شهدت تنوعا، فكان منها البسيط المنفرد الذي يتكون من غرفة واحدة مربعة مقببه تضم التربة وحدها، ومنها الملحقة أو الملاصقة للمسجد، أو مدرسة أو خنقاه، وقد بالغ في فترة ما في الانفاق على تزيينها كالذي حدث بالهند مثلا ¹³، فلم يعرف الشرق ضريحا أمويا واحدا، وقد فسر المؤرخون لك اتجاه العباسيين نحو تخريبها لكي لا يبقوا على أي أثر لذكراهم، وكذا خوفهم من أن تلقى قبورهم المصير نفسه، فعمدوا إلى تضليل الناس عن مواضعها الأصلية، وما وجد منها إلا ضريح واحد قرب سامراء بالعراق ¹⁴، وقد أقيم فوق مدفن الخليفة " المنتصر بالله "، وجدت بعدها في العصر الاخشيدي والفاطمي، وأعقبها قباب أضرحة العصر الأيوبي ¹⁵، ليعقبها قباب عهد المماليك ¹⁶ .

استمر بناء الأضرحة في العهد العثماني، وعرفت الجزائر بناء الكثير منها ويزداد عددها كلما اتجهنا غربا، فقد يذكر أن أغلبهم جاؤوا من جنوب المغرب الأقصى ¹⁷، وهذا هو شأن أضرحة مدينة شرشال .

1 - ضريح الولي الصالح " سيدي ابراهيم الغبريني " :

وصاحبه ابراهيم بن سيدي محمد الغبريني، وقد عاش في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، من عائلة عرفت بتقواها ونفوذها الاجتماعي والسياسي بمدينة شرشال خلال الحكم العثماني، لكن الآراء في تحديد نسبه قد اختلفت، إذ هناك من ينسبه إلى " بني غبرين "

أو " بني غيري " بطن من بطون البربر بمنطقة العزاقة¹⁸، وهناك من يرى أن نسبه يرجع إلى جنوب المغرب الأقصى¹⁹.

تلقى علومه الأولى على يد الفقيه " سيدي محمد بن علي بهلول "، ثم على يد " الكّاني " ليسافر بعدها إلى القاهرة للاستزادة من العلم، فتلقاها على يد " الشيخ البكري "، ليعود إلى مدينة شرشال وبها ذاعت شهرته بين الناس، ونجح إلى حد كبير في نشر تعاليم الطريقة القادرية بينهم. سكن "ابراهيم الغبريني" مسكنا قديما بقصبة المدينة يعرف عند عامة الناس باسم "علي سيدي ابراهيم" *، وقد كان يدرس ويجتمع بالناس في مكان ضريحه اليوم، والذي قد بني وقب بعد وفاته، ليصبح مزارا للناس من كل مكان وجميع الأيام¹.

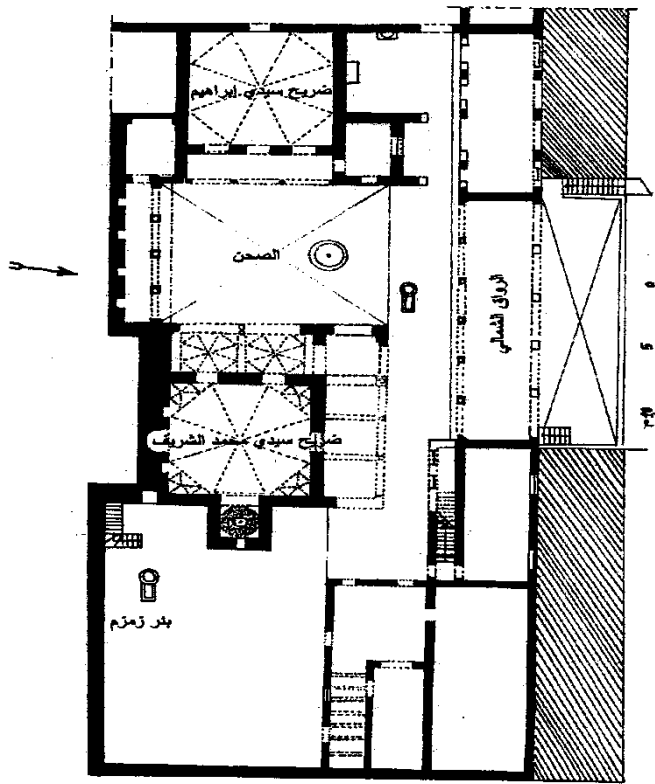
أ - دراسة وصفية تحليلية للضريح :

المظهر الخارجي :

يقع بالجهة الغربية من مقبرة الغبريني، يقابلنا إليها مباشرة على اليمين (أنظر المخطط رقم 02) .

1- Ibid ; P 02 , 05 .

* تسمية " علي " يطلق على المسكن ذو الطابق الواحد :أنظر : توفيق (أحمد) : محمد عثمان ...، المرجع السابق، ص 148، ويقع " علي سيدي ابراهيم الغبريني " على يسار الطرق الشرقي الصاعد بشارع 16 جلول بن ميلود .



المخطط رقم 02 : ضريح سيدي ابراهيم الغبريني بشرشال .

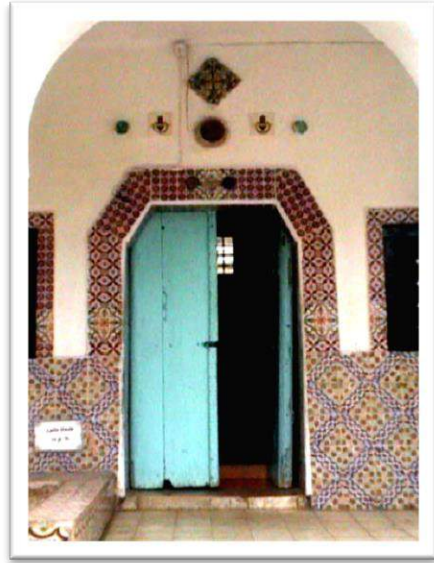
بتصرف - عن المهندس يوسف شناوي -

فشكله العام مكعب تقدر مساحته بحوالي 12 م² (أنظر المخطط رقم 02)، وتقع واجهته الرئيسية بالجهة الشرقية، إذ يتقدمها رواق طوله 6.40 م وعرضه 2 م، وهو مدعم من الجهة الأمامية بأربع أعمدة مركبة نصفها السفلي ثثن والعلوي حلزوني، أما العمودان الجانبيان الآخران فهما أسطوانيان وأملسا البدن، تعلوها ثلاث عقود متجاوزة منكسرة مزينة بأحزمة مزدوجة من البلاطات الخزفية تمتد عموديا وأفقيا، وفي الركن الجنوبي للرواق مصطبة تضم ثلاثة قبور متصلة فيما بينها، وهي قبر " لالة عودة " وقبر " سيدي علي الفركي " ويتوسطها قبر حديث .

بوسط الجدار الداخلي للرواق مدخل عرضه 1.10 م وارتفاعه 1.95 م، يعلوه عقد منكسر، أعلاه ثلاث كريات خزفية خضراء اللون مثبتة بانتظام وعلى استقامة واحدة أعلى المخل، ويتوسطها "خمستان" (أنظر الصورة أ - ب رقم 09) .



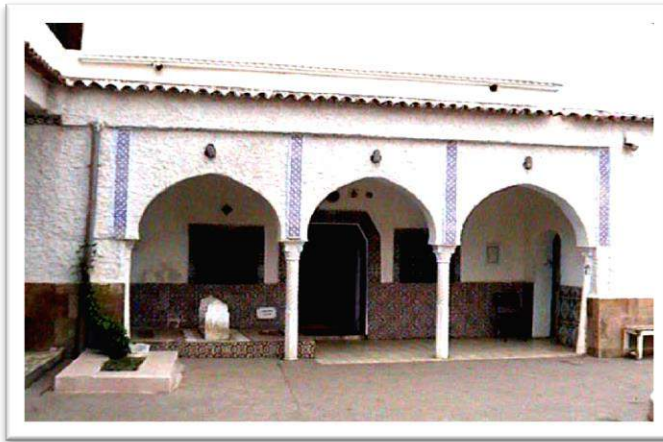
ب



أ

الصورة رقم 09 : مدخل ضريح سيدي ابراهيم الغبريني بشرشال

كما وفتحت على جانبي المدخل نافذتين بنفس الشكل والمقاسات، سيجتا بشباك من حديد وكسيت بواطنها وأطرت ببلاطات خزفية (أنظر الصورة رقم 10)



الصورة رقم 10 : الواجهة الرئيسية لضريح سيدي ابراهيم الغبريني بشرشال .

وكسر هذا الجدار بدوره ببلاطات خزفية بارتفاع 1 م، كما توجت أعلى واجهة الرواق إفريز بارز من القرميد المجوف (أنظر الصورة رقم 10) .

وبجهة ذاك الرواق الشمالية فتح مدخل، يعلوه عقد على شكل مقبض قفة يغلق بباب خشبية، يؤدي مباشرة إلى غرفة مستطيلة الشكل طولها 3.50 م وعرضها 2.60 م، وبها مجموعة من القبور، ويقال أنها ضريح الولي الصالح "سيدي بلقاسم"، وتتصل هذه الغرفة بالواجهة الشمالية لضريح "ابراهيم الغبريني"، إضافة إلى مجموعة من قبور أوجدت به حديثا كقبر "لالة فاطمة" .

اتصلت الواجهة الجنوبية للضريح بالغرفة المحاذية الرواق الجنوبي، أما الواجهة الغربية فقد كسيت كليا ببلاطات خزفية حديثة، وهي تمثل جزءا كبيرا من السور الغربي للمقبرة، تتوسطه نافذة تعرف " بالنافذة أو الطاقة الغربية " والتي جاءت مماثلة للنافذتين اللتين فتحتا في الواجهة الشرقية للضريح، كما وقد كسي باطنها ببلاطات خزفية وسيجت هي الأخرى بشباك حديدي (أنظر الصورة رقم 11)، واستحدثت لوحة رخامية دالة على ضريح الولي الصالح سيدي ابراهيم الغبريني (أنظر الصورة رقم 12)



الصورة رقم 11 : نموذج لشبايك ضريح سيدي ابراهيم الغبريني بمدينة شرشال

الصورة رقم 12 : كتابة مستحدثة دالة على ضريح سيدي ابراهيم الغبريني بمدينة شرشال

تعلو غرفة ضريح " ابراهيم الغبريني " قبة مضلعة كبيرة الحجم، تنتهي بكرة من الجص خضراء اللون، تخلو جدرانها من الفتحات، وهي تقوم على رقبة مربعة، يطوق أضلاعها من الجهة الغربية والشرقية والشمالية إفريز مسنن من الآجر، توج بعدد من الشرافات المسننة (أنظر الصورة رقم 13) .



الصورة رقم 13 : قبة سيدي ابراهيم الغبريني من الخارج .

المظهر الداخلي :

يؤدي المدخل الرئيسي الذي يغلق بباب خشبي ذي مصراعين ومكان التقاءهما مزخرف بزخرفة هندسية عبارة عن شريط منكسر نفذ عن طريق الحفر البارز، يؤدي المدخل مباشرة إلى غرفة الضريح التي ترتفع عن أرضية الرواق بدرجة واحدة، وهي تتخذ شكلا مربعا بطول 5.60 م وعرض 5.60 م، وسمك جدرانها 1 م، كسيت كلها ببلاطات خزفية حديثة إلى ارتفاع 1.40 م، ما عدا الجدار الشرقي إلى ارتفاع 2.15 م، كما بلطت أرضيتها ببلاطات خزفية حديثة بنية اللون .

وبالركن الشمالي الغربي للغرفة مصطبة مكسوة هي الأخرى ببلاطات خزفية حديثة، وهي تضم قبر " سيدي ابراهيم " (أنظر الصورة رقم 14)



الصورة رقم 14 : ضريح سيدي ابراهيم الغبريني .

المزدان بتابوت خشبي مليء بالزخارف النباتية، والهندسية والرمزية المنفذة عن طريق الحفر المائل (أنظر الصورة أ - ب - ت رقم 15)، إلى جانبه من الجهة الشمالية قبر حديث لأحد أحفاده .



ب

أ



ت

الصورة رقم 15 : أجزاء من تابوت ضريح سيدي إبراهيم الغبريني بشرشال

وغرفة الضريح تعلوها قبة قائمة على مثلثات كروية بسيطة لتحول المربع إلى مثنى ثم إلى دائرة، تقوم عليها القبة مثمنة الأضلاع، يحيط بعنقها شريط من البلاطات الخزفية، وهي مركز القبة نجمة خماسية وقد ثبت في كل مثلث كروي فانوس زجاجي أوجد حديثا لإنارة الغرفة التي حوت ضريح "سيدي إبراهيم الغبريني"

2 - ضريح الولي الصالح " سيدي محمد شريف " :

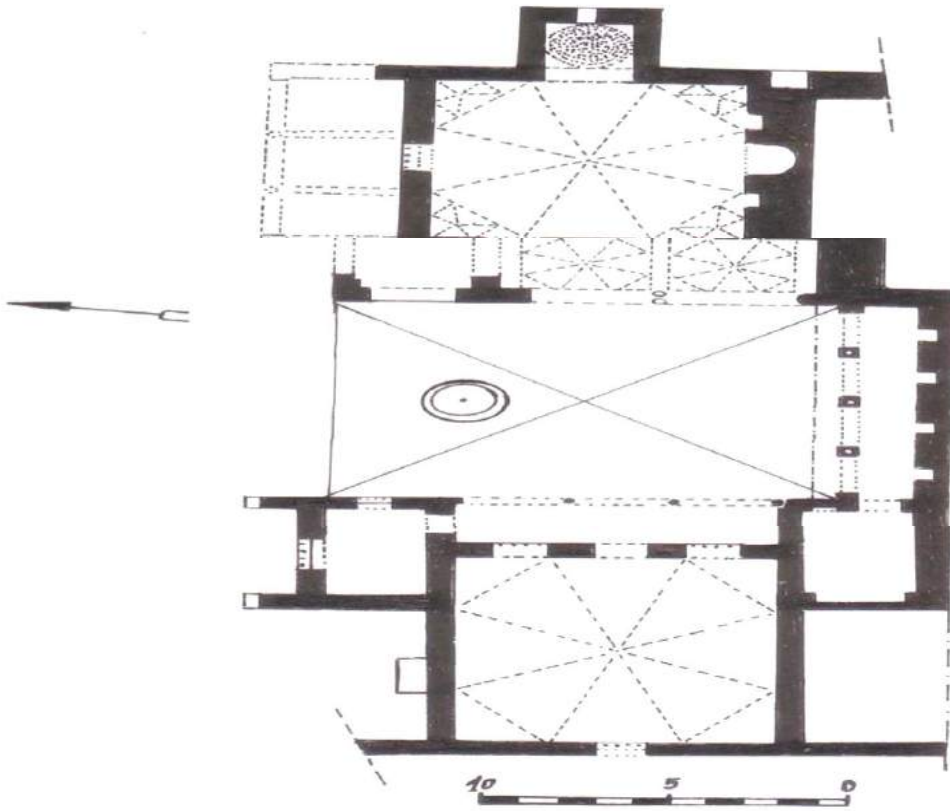
وصاحبه من عائلة الغبريني، فقد جاء من الساقية الحمراء بالمغرب الأقصى، بالقرن التاسع الهجري الخامس عشر ميلادي، رفقة "أب عبد الله" الذي استقر بنواحي شلف، و "محمد

الغبريني" الذي حل بمدينة شرشال بينما استقر هو ببلاد القبائل، وعمل على نشر وتبليغ الدعوة الإسلامية بين أهلها، كما أنه فيما بعد صهر "إبراهيم الغبريني"، إذ زوجه ابنته "فاطمة"²⁰.

أ - دراسة وصفية تحليلية للضريح :

المظهر الخارجي :

يقع ضريح الولي "محمد شريف" بالجهة الشرقية، مقابلًا لضريح صهره "إبراهيم الغبريني" فشكله العام مكعب، ومساحته 25 م² (أنظر المخطط رقم 03). واجهة المقبرة الغربية هي الواجهة الرئيسية له، يتقدمها رواق طوله 5.70 م وعرضه 2.40 م، مدعم بعمودين أسطوانيين يعلوهما عقدان نصف دائريين بين كل عقد وآخر حزام عمودي وأفقي من البلاطات الخزفية من نفس النوع التي وجدت على واجهة الرواق الجنوبي، يرتكز العقد الأيمن من جهته اليمنى على العمود الأول المتصل بجدار الرواق الجنوبي، ومن جهته اليسرى على العمود الثاني المزدوج ومنه ينطلق العقد الأيسر الذي يرتكز من جهته اليسرى على الجدار مباشرة، وينطلق عقد ثالث نصف دائري يرتكز من جهة على العمودين المزدوجين وعلى الجدار الداخلي للرواق من جهة أخرى، وذلك العقد يحمل سقف الرواق المقبب بقبتين مضلعتين صغيرتين، تظهر فيهما طريقة تشكيل الحنايا الركنية.



المخطط رقم 03 : ضريح سيدي محمد الشريف بشرشال

مقارنة بضريح صهره سيدي ابراهيم الغبريني - بتصرف - عن المهندس يوسف شناوي -

والملفت للانتباه هو أن تيجان الأعمدة عبارة عن قواعد اعمدة قديمة جلبت من المواقع الأثرية القديمة للمدينة، وضعت مقلوبة لتحل محل التيجان الأصلية، فتح في الجدار الشرقي للرواق مدخل ارتفاعه 1.70 م وعرضه 0.80 م، يغلق بباب خشبي ذو مصراعين مشابه لباب ضريح " ابراهيم الغبريني "، وفتحت شمال المدخل نافذة سيجت بشباك حديدي مزدوج، كما وكسيت بواطن المدخل والنافذة ببلاطات خزفية، والجدار ببلاطات من الحجر الرملي إلى ارتفاع 1 م (أنظر الصور رقم 16) .



الصورة رقم 16 : الواجهة الرئيسية للضريح سيدي محمد الشريف بشرشال

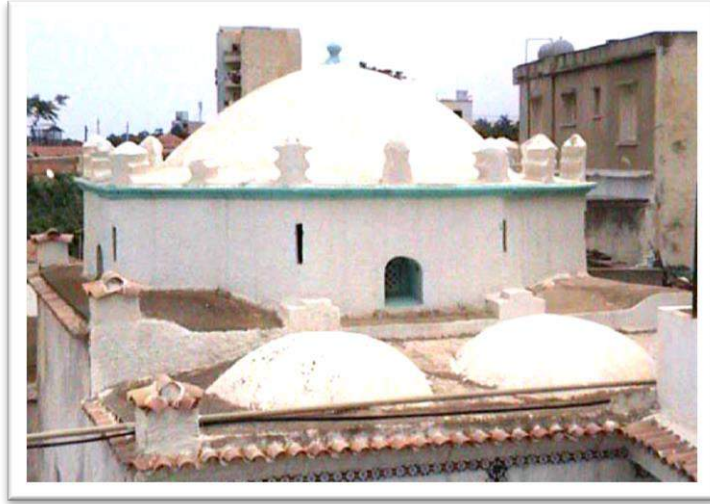
ونلاحظ بالواجهة الشرقية للضريح بروزاً إلى الخارج على شكل غرفة تعلوها قبة، وفتحت بالواجهة الشمالية نافذة مسيجة بشباك من الاسمنت، كما كان يتقدم تلك الواجهة رواق²¹، وقد انهار على إثر الزلزال الذي ضرب المدينة سنة 1980 م (أنظر الصورة رقم 17)، والواجهة الجنوبية للضريح فهي تمثل جزء من السور الجنوبي للمقبرة .



الصورة رقم 17 : الرواق الشمالي المنهار من ضريح سيدي محمد الشريف .
- عن أرشيف حصن 23 -

تعلو غرفة الضريح قبة مركزية نصف كروية ملساء متوسطة الحجم، تنتهي بكرة جصية خضراء اللون تقوم على رقبة مثمثة مزدانة بفتحات صغيرة موزعة على أضلاعها بانتظام وذلك

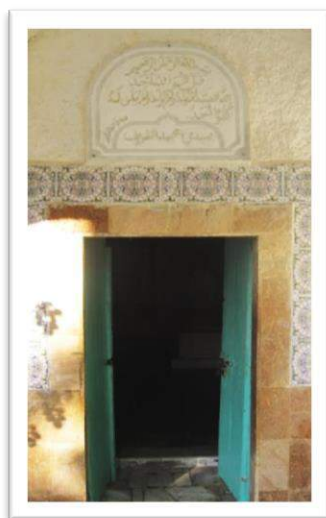
قصد الانارة والتهوية، وتتوج الرقبة ست عشرة شرافة (أنظر الصورة رقم 18) مماثلة للتي بقبة مطبخ قصر الداى وشرافات الجامع الكبير بالعاصمة، هذا ما يؤكد عكس ما ذهب غليه جورج مارسيه في كتابه " عمارة الغرب الاسلامي " إذ شك في إمكانية وجود هذا النوع من الأضرحة في الجزائر²² .



الصورة رقم 18 : قبة ضريح سيدي محمد الشريف من الخارج

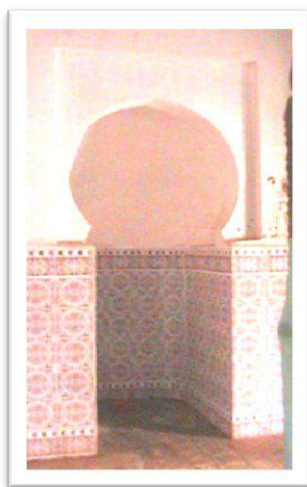
المظهر الداخلي للضريح :

يؤدي المدخل مباشرة إلى غرفة ضريح " سيدي محمد الشريف "، وهي تنخفض عن أرضية الرواق الذي يتقدمها بمعدل درجة واحدة، وهي تؤخذ شكلا مربعا بمقاسات 5 x 5 م، وقدر سمك جدرانها ب 1 م، عدى الجدار الجنوبي لها والذي يبدو أكثر سمكا، وذلك واضح من خلال عمق المحراب الذي بوسطه وقد استحدث أعلاه كتابة دالة على مكان دفن الولي الصالح سيدي محمد الشريف في لوحة رخامية بنفس شكل والكتابة مقارنة بشبيبتها أعلى نافذة الولي الصالح سيدي ابراهيم الغبريني (أنظر الصورة رقم 19) .



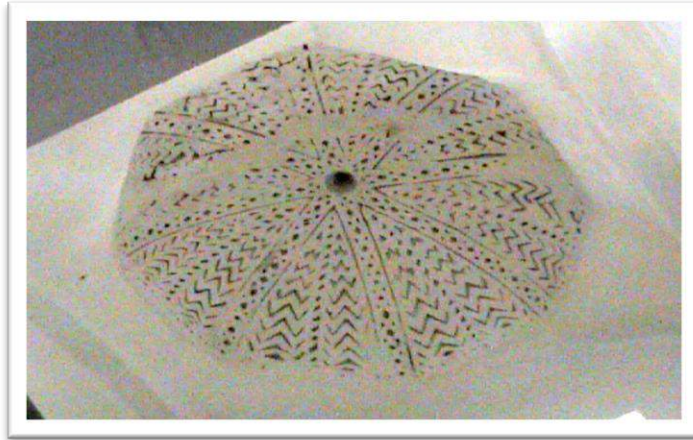
الصورة رقم 19 : مدخل الباب الرئيسي لضريح سيدي محمد الشريف بشرشال والكتابة المستحدثة الدالة على مكان الضريح

ذاك المحراب مجوف (المذكور سابقا) ، عرضه 1 م وعمقه 1.25 م، تعلوه نصف قبة، أما إطاره فتكون من عقد متجاوز منكسر وهو مزدان من داخله بمجموعة من المربعات الخزفية (أنظر الصورة رقم 20) .



الصورة رقم 20 : محراب ضريح سيدي محمد الشريف بشرشال .

تتوسط الجدار الشرقي غرفة من ثلاثة جدران على شكل إيوان، ترتفع عن أرضية غرفة الضريح بمعدل درجة واحدة ويقدر طولها ب 2 م وعرضها 1.60 م، وتعلوها قبة نصف كروية مزخرفة بزخارف جصية مخزومة (أنظر الصورة رقم 21)



الصورة رقم 21 : منظر داخلي للقبة التي تعلوها مخزن ضريح سيدي محمد شريف بشرشال .

وفتحت في أعلى جدارها الشرقي نافذة سيجت بشباك من الاسمنت، نظرا لقلّة الاضاءة بالغرف كونها كانت بمثابة مخزن كان " إبراهيم الغبريني " يحفظ فيها كتبه²³، فكانت تلك النوافذ لغرض الاضاءة أكثر من وظيفة التهوية .

وقد كان يتقدم هذه الغرفة قبر للحاج " بن عودة "، ولم يعد موجودا اليوم، والسبب راجع للترميمات المتكررة التي لحقت بغرفة ضريح الولي الصالح " سيدي محمد شريف "، ونجد بالركن الشمالي الغربي للغرفة نفسها مصطبة مكسوة ببلاطات خزفية، وضمت قبر الولي الصالح نفسه (أنظر الصورة رقم 22)

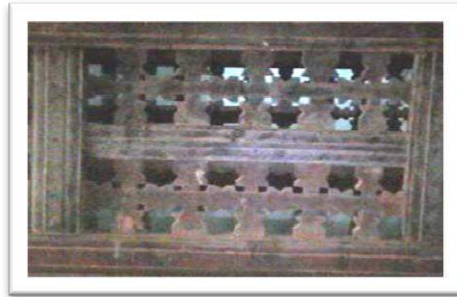


الصورة رقم 22 : ضريح سيدي محمد الشريف بشرشال

لتكسى بعدها بتابوت من الخشب وصناعته تمت بطريقة تجميع حشوات متماثلة الشكل
(أنظر الصورة أ - ب رقم 23) .



ب

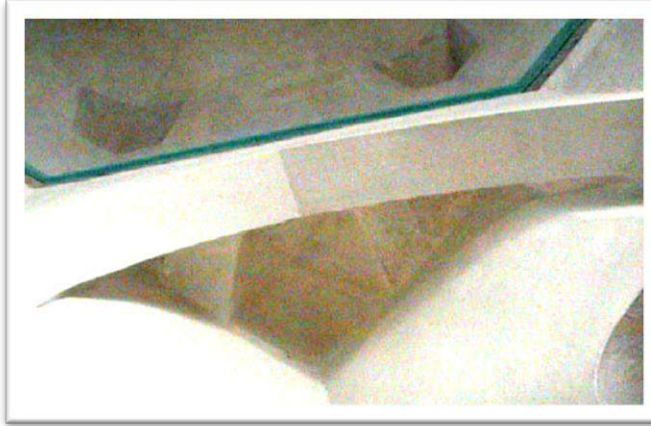


أ

الصورة رقم 23 : القطع الخشبية المزخرفة والمزينة لتابوت ضريح سيدي محمد الشريف بشرشال .

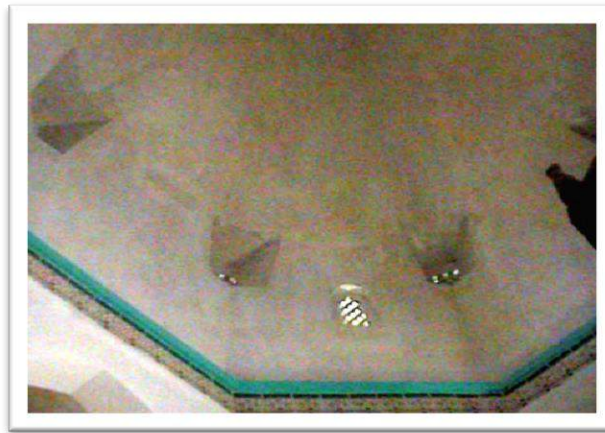
ومن ناحية المصطبة نفسها على شمال التابوت وجدنا قبر لأحد أحفاد صهره " إبراهيم الغبريني "، وبالجهة المقابلة بالركن الشمالي الغربي قبراً آخر مجهول صاحبه لكنه دائماً من نفس العائلة، كسيت جدران هذه الغرفة حديثاً ببلاطات خزفية بارتفاع 1.44 م عن الأرضية، وتعلو غرفة الولي الصالح الصهرقة مركزية تقوم على حنايا ركنية تحتوي كل منها على قببة

مضلعة وتسمح هذه الحنايا بالانتقال من الشكل المربع إلى المثلث ثم بعدها إلى الدائرة قصد إقامة قبة (أنظر الصورة رقم 24)

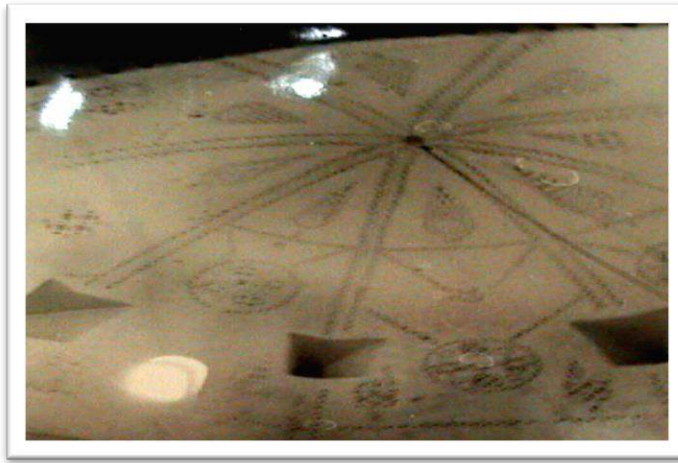


الصورة رقم 24 : الحنايا الركنية بقبة ضريح سيدي محمد الشريف بشرشال

والتي كسي عنقها بشريط من البلاطات الخزفية، كما فتحت في كل ضلع من أضلاعها ثلاث فتحات موزعة بانتظام على كل أضلاع القبة فتحتان في مستوى واحد وفتحة أخرى تعلوهما، كلها كسيت بمشربيات لغرض التهوية والإنارة (أنظر الصورة رقم 25 والصورة رقم 26)



الصورة رقم 25 : قبة ضريح سيدي محمد الشريف بشرشال من الداخل



الصورة رقم 26 : منظر داخلي لقبة ضريح سيدي محمد الشريف بشرشال

ب - مواد بناء الضريحين :

الحجارة : وجدنا منها خاصة المصقولة، وهي متنوعة الحجم بين كبيرة ومتوسطة، واستعملت خاصة في بناء أسس الجدران، حيث نجدها في الصفوف الأولى من البناء، ليتناقص استعمالها بالصفوف الموالية لملء الفراغات الموجودة بينهما بالآجر والملاط، واستخدمت أيضا في تشكيل الأعمدة.

أما غير المصقولة منها، فاستخدمت في أركان المبنى لغرض تقوية الجدران، ووجدناها بأماكن متفرقة منها كذلك لسد الفراغ الموجود بين الحجارة المصقولة .

الآجر : كونه خفيف الوزن ومقاوما للحرارة فقد استعمل بشكل واسع في عمارة الضريحين ووحدات المقبرة، وجدناه في القباب والسقوف ذات الشكل نصف برميلي وبالعمود، كما استعمل إلى جانب الحجارة في سد الفراغات الموجودة في الجدران، واستخدم في تشكيل العناصر الزخرفية كالشرفات التي تتوج عنق القباب والأفاريز المسننة

القرميد : استعمل في تشكيل الأفاريز التي تعلو جدران الأروقة المطلة على الصحن

الزليج أو البلاطات الخزفية : تم استعماله بكثرة في وحدات المقبرة، وجدناه ككسوة لجدران الغرف والأروقة، كما استخدم أيضا في تبليط الأرضية مثلها هو الحال في غرفة ضريح الولي الصالح " سيدي ابراهيم الغبريني "، ووجدناه كذلك على شكل كسوة للأطر وبواطن المداخل والنوافذ وكأحزمة زخرفية وزعت بين العقود في الأروقة وبعنق القباب، وكسوة لمصاطب المقابر، والبلاطات المستعملة في كسوة القبور أصلية أعيد استعمالها لهذا الغرض بعد نزعها من غرفة ضريح " سيدي إبراهيم الغبريني " (أنظر الصورة رقم 27) .



الصورة رقم 27 : نماذج لبلاطات خزفية أصلية بضريح مدينة شرشال

الملاط : حظي هو الآخر باستعمال وافر، خاصة بوحدات المقبرة نتيجة الفراغ الكبير الموجودة بين مادتي الحجر والأجر، كوسيلة ربط بين مواد البناء وفي تغطية الجدران، وثبتت قطع القرميد المشكلة للأفاريز .

الجبص : وقد وجدناه هنا مستعملا بطلاء الجدران والسقوف، وبكسوة القباب من الداخل والخارج، كما استعمل في تشكيل بعض العناصر المعمارية كالتيجان التي تعلو الأعمدة المدعمة للرواق بالجهة الجنوبية .

الخشب : وتم استعماله في صناعة الأبواب والتوايت، وبناء العقود المشكلة لبائكتي الرواقين اللذين تقدما كلا من الضريحين وكحامل لعائتي مدخلهما، وكذلك استعمل ببناء العقود الأخرى .

الحديد : اقتصر استعماله على شبايك النوافذ وبمزلاج الأبواب ومسامير تثبيتها، كما استعمل في تشكيل العوارض الحديدية التي بين القباب النصف برميلية المشكلة لسقوف بعض الأروقة والغرف، ووظف كحامل للفوانيس المثبتة في المثلثات الكروية لقبة غرفة ضريح الولي الصالح " سيدي ابراهيم الغبريني " .

ومن الأمر الأكيد والذي لا ريب فيه من خلال بحثنا المتواضع هو أن عائلة الغبريني من أتباع الطريقة القادرية، إضافة إلى كون الولي الصالح " إبراهيم الغبريني " قد تشبع بتعاليمها، فإن أفكارها قريبة لأفكار الطريقة القادرية في مناطق غير هاته المنطقة، فإصابة حفيد " إبراهيم الغبريني " المدفون بجانب ضريح وتابوت صهره " محمد الشريف " بالعمى عند اقdamه على فتح الصندوق²⁴، لتتشابه بذلك مع فكرة سائدة بزاوية " سيدي الشيخ كنتة " بمنطقة أدرار، وهذه الظاهرة لا أساس لها من الصحة، بل الهدف منها هو ترهيب لكل من أراد كشف أسرار الطريقة القادرية خاصة من طرف الغريب عنها .

ومن خلال دراستنا البسيطة لكلا الضريحين، فيمكننا إدراجهما ضمن النوع البسيط المنفرد، الذي يتكون من غرفة واحدة مربعة تضم التربة وحدها، وما ميز عمارتها الشكل المكعب طبقا للشكل الذي عرف بمنطقة المغرب الاسلامي²⁵، وبتوفر المواد الأولية في بناء الضريحين، خاصة مادة الحجارة يختلف أنواعها وبساطة استعمالها ما أدى إلى تشكيل عناصر معمارية مختلفة، كالأعمدة المركبة والتيجان، لتتمكن بذلك المعمارى والفنان الجزائري بصفة عامة من كسر هاجس التبعية التجارية للدول الأجنبية، كما وقد استعملت لبعض العناصر المعمارية العثمانية بالجزائر ككل، كالحنايا الركنية في قبتي الضريحين، وعقود مختلفة الأشكال كالتى على شكل مقبض قفة، التى شاع استعمالها فى العمارة العثمانية بالجزائر، ودليل تأثير العمارة العثمانية فى عمارة الضريحين، وكذا دليل على أنهما شيدا فى فترة الحكم العثمانى، ذلك لما سماه " جورج مارسىه " بالعقد الجزائرى²⁶ .

إضافة إلى ذلك فقد وجدنا محراب بغرفة ضريح الولي الصالح " محمد الشريف "، وهو ليس بالشيء الجديد، بل أوجد بالعديد من الأضرحة على سبيل المثال بضريح " أحمد بن يوسف الملياني " بمنطقة مليانة، وكذا بضريح " عبد الرحمن الثعالى " بالعاصمة الجزائر، ولعل القصد من وجودها بتلك المباني لتكون قبلة للمترحمين على دفن الضريح، تقليدا لما فعله السلف من الصحابة والتابعين، فقد كانوا إذا ما سلموا على النبي صلى الله عليه وسلم وأرادوا الدعاء، دعوا مستقبلين القبلة لا القبر²⁷، كما هناك أيضا دليل آخر على تأثير تعاليم الدين الاسلامى على هذا النوع من العمارة هو دفن كلا من الوليين الصالحين وغيرهم من أفراد العائلة بالجهة الجنوبية من غرفتي الضريحين .

ويمكننا تفسير الاعتناء بعمارة هذين الضريحين من الناحية المعمارية والفنية، ما هو إلا دليل على مكانة صاحبيهما فى وسط المجتمع بمنطقة شرشال، لتعكس بذلك مدى تأثير الناس آنذاك بالدين وتعاليمه لدرجة تقديس أوليائهم الصالحين لما كانوا عليه من قداسة ونفوذ وسطهم .

لقد شهد كلا من الضريحين ببعض عناصرهما المعمارية، والمقبرة أيضا رمت واستحدثت في الفترة الاستعمارية وربما قد عمدوا لذلك العمل قصد كسب ثقة السكان تلك الفترة، وتم لنا ملاحظة ذلك بالسقوف التي جاءت عبارة عن أقبية نصف برميلية، في كلا من الرواق الشمالي والجنوبي، وكذلك ببعض الغرف .

الخاتمة :

ومن ثم يمكننا القول أن عمارة أضرحة مدينة شرشال قد تميزت بجمالها ونفامتها مقارنة بالأضرحة الموجودة بأريافها والتي تميزت بطابعها المعماري البسيط من حيث تقنية البناء والمواد المستعملة في ذلك، وكذا من حيث العناصر المعمارية المشكلة لها، ويظهر ذلك جليا بمقارنتها بالأضرحة الموجودة في مرتفعات مدينة شرشال كضريح " سيدي يحيى " وضريح " سيدي بولحروز "

وباعتبار المقبرة من المعالم المصنفة ضمن التراث الوطني، والضريحين من بين ما احتوته، فهي لأهميتها تعتبر من ضمن المعالم الأثرية السبعة المدرجة للترميم من قبل المرممة "فردي صباح"²⁸، وبذلك فإنها قد تعرضت الكثير من وحداتها المعمارية إلى الطمس، ولعل ذلك كان بفعل العوامل المناخية من الرطوبة خاصة، أو جراء الكوارث الطبيعية كالزلازل، إضافة إلى العوامل البشرية والمتمثلة في ادخال بعض التعديلات على تلك الوحدات دون إدراك مسبق لأهمية الأصل منها، جهلا أو تعمدا، فإن عملية الترميم العشوائية أدت بدورها إلى طمس الكثير من المظاهر الأصلية في المقبرة هذا ما أفقد المقبرة صورتها الأولى .

ومجمل تلك الترميمات والتغييرات كان مستهلها بالرواق الشمالي المطل على البحر، والذي كان مفتوحا من الجهة الشمالية على البحر والجنوبية على الصحن، لكن تم غلقه من طرف عائلة

"الغبريني"، فحول إلى أربع غرف لإيواء الزوار، ما أدى إلى فقدان المظهر الميل الذي كان يكسبه للمقبرة، حيث إطلاله على البحر والصحن في آن واحد، ليعاد فتحه اليوم قصدا لفتح فسحة الاطلاع على البحر لزائري المقبرة، وجعل بها مقاعد للاستراحة .

إضافة إلى الرواق الذي يتقدم غرفة ضريح الولي الصالح " محمد الشريف " من جهته الشمالية انهار جراء زلزال عام 1980 م لم يرمم، فلم يعد له اليوم وجود، كما أن الرواق الذي يتقدم الواجهة الرئيسية للضريح نفسه، عرف أيضا بعض التغيرات، فبعد انهياره إثر ذاك الزلزال أصبحت تيجان أعمدته عبارة عن قواعد لأعمدة قديمة تم جلبها من المواقع الأثرية القريبة من مدينة شرشال، وضعت مقلوبة محل التيجان الأصلية

وأثناء ترميم قبة هذا الضريح طمست زخارفها المخزمية التي كانت تزين أضلاعها من الداخل، ليتم غلق تلك الزخارف فلم يعد لها أثر اليوم .

وتم غلق بغرفة ضريح الولي الصالح " إبراهيم الغبريني " الحنية التي تتوسط جدارها الجنوبي، وأغلقت أيضا الحنية التي كانت بجدارها الغربي، التي كانت توضع بها الشموع

إضافة إلى نزع الفانوس النحاسي المزدان بزخارف مخزمية على ثمنط الرقش العربي الذي كان يتدلى من النجمة الخماسية، التي تتوسط قبة الضريح، وهو اليوم للأسف محفوظ بمخزن المقبرة في حالة سيئة من الحفظ بحيث لم يبق منه سوى الجزء العلوي .

والملاحظ أنه قد تم استعمال بوحدات المقبرة وعناصرها المعمارية بلاطات خزفية في كسوة الجدران، كما وتم استعمالها كأحزمة مزدوجة أفقيا وعموديا بين العقود، وأفاريز تطوق عنق القباب من الداخل ومن الخارج، وبأطر وبواطن المداخل والنوافذ، وبتبليط الأرضية وكسوة كمصاطب القبور، وهي يختلف الألوان والزخارف، معظمها مستحدثة.

الهوامش:

- 1- سعد الله (أبو القاسم) : تاريخ الجزائر الثقافي، من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري، ج 2، طبعة الجزائر 1985 م، ص 461 .
- 2- ابن خلدون (عبد الرحمن) : المقدمة، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان 1992 م، ص 370، وأنظر : ابن أبي زرع : الأئيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصورة للطباعة والوراقة، الرباط المغرب 1973 م، ص 33، والسبتي (عبد الأحد) : المدينة في العصر الوسيط، ط 1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب، ص 15، 18 .
- 3- عثمان (محمد عبد الستار) : المرجع السابق، ص 135 .
- 4- Marcel (Ph) : Cherchell miscellanées , Le cimetière de Ghobrini , Comité du ville Alger , Alger 1973 , P 02 .
- 5- Marcel (Ph) : Cherchell miscellanées op .cit , P 01 .
- 6- أرشيف حصن 23 : شرشال، العلة رقم 01، من خلال ملف خاص بمقبرة الغبريني .
- 7- Marcel (Ph) : Op.cit , P 10 .
- 8- Ibid , P 11 .
- 9- ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد) : لسان العرب، مج 2، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت - لبنان 1959 م، ص 526 .
- 10-Diez (E) :L'art de l'islam , Petite bibliothèque ,Paris , S.d , P 50 .
- 11- لمعي (صالح مصطفى) : القباب في العمارة الإسلامية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ص 23 .
- 12- عبد الجواد (توفيق أحمد) : تاريخ العمارة الإسلامية، ج 3 ، القاهرة 1970 م، ص 58 .
- 13- غالب (عبد الرحيم) : المرجع السابق، ص 256 .
- 14- شافعي (فريد) : العمارة الإسلامية في مصر العربية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر 1970 م، ص 256 .
- 15- رزق (عاصم محمد) : المرجع السابق، المرجع السابق، ص 175 .
- 16- عثمان (محمد عبد الستار) : نظرية الوظيفة بالعمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة، دار الوفاء لدينا للطباعة والنشر 2000 م، ص 106 .
- 17-Couvet (C) : Les marabouts , petits monuments funéraire et votifs du nord de l'Afrique , in R.Af : N° 64 1923 , P 288 .
- 18- نويهض (عادل) : معجم أعلام الجزائر من صدر الاسلام حتى منتصف القرن العاشر، بيروت - لبنان، دون تاريخ، ص 15 .
- 19- Marcel (Ph) : Op.Cit , P 02 .
- 20-Marcel (Ph) : Op.Cit , P 03 .
- 21-Marcel (Ph) : Op .Cit P 12 .
- 22-Marçais (G) : L'Architecture musulmane d'occident , P 436 .
- 23-Marcel (Ph) : Op.Cit ; P 13 .
- 24 - Marcel (Ph) : Op.Cit; P 04 , 13 .

25- غالب (عبد الرحيم) : المرجع السابق، ص 56 .

26-Behiri (A) : La formalisation comme processus révélant le système constructif d'un élément architectural , cas de l'arc Cherche lois , Thèse de magister , E.P.A.U, Alger 2007 ; P 67 .

27- بن تيمية (أحمد) : كتاب الزيادة، تعليق : سيف الدين، دار مكتبة الحياة، بيروت 1980، ص 24 .

28- أرشيف حصن 23 : " شرشال " العلبة رقم 01، من خلال ملف مقبرة " الغبريني " وتقرير الترميم الخاص بها .